الفصل السادس عشر

غزوة حنين والطائف (٨ هـ)

المبحث الأول

أسبابها وأحداث المعركة

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له قريش خافت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولَّوا عليهم مالك بن عوف النَّصري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبني هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب وكان معهم دريد بن الصمَّة، وكان معروفاً بشدة البأس في الحرب وأصالة الرأي، إلا أنه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء والذراري والأموال حتى لا يفروا، فلما علم بذلك دريد سأله: لمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك!! ولكنه لم يستمع لمشورته [١].

أولاً: أهم أحداث غزوة حنين:

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوال [٢]، وقد استخلف الرسول ﷺ عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين، أما عدد هوازن وثقيف، فكانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة ودخل الإعجاب في النفوس [٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٧)، السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٨٨).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٩٧).

obeikandl.com

أ ـ التعبئة التي اتخذها مالك بن عوف زعيم هوازن وثقيف:

اتخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئة عالية مرت بمراحل:

١ ـ الروح المعنوية لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشه وحثهم على الثبات والاستبسال، ومما قال في هذا الجمع الحاشد: إن محمداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً [١]، لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم [٢].

٢ ـ ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم، لأن المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا شعر أن أعزّ ما يملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار، مخلفاً ما وراءه في ميدان المعركة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا حنيناً، فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل ثم صفّت المقاتلة، ثم صفّت النساء من وراء ذلك ثم صفّت الغنم ثم صفّت النعم [٣].

٣ ـ تجريد السيوف وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقاً لهذا، بدليل قولهم: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد عليهم [٤].

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كانت عند مالك بن عوف النصري معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فعمل بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين لولا لطف الله ﷻ وعنايته.

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين،

---

(١) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين وإسكان الميم وهو الذي لم يجرب الأمور.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٨٩٣).
(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٦ رقم ١٠٥٩).
(٤) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٧٩، ١٨٠) المستدرك للحاكم (٣/ ٤٨، ٤٩) صحيح الإسناد.

لأن النصر في الغالب يكون للمهاجم، أما المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضعف، ولهذا آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثم بثبات رسول الله ﷺ حيث كسب المسلمون الجولة وانتصروا على أعدائهم [١].

٦ ـ شن الحرب النفسية ضد المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازني استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شنَّ الحرب النفسية ضد المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه في الميدان فجعلها وراء جيشه ثم أركب عليها النساء، فكان ذلك المشهد منظر مهيب يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك [٢].

ب ـ خطوات الرسول ﷺ لصد هذه الحشود:

لما بلغ النبي ﷺ عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة ـ شرّفها الله ـ قام بالآتي:

١ ـ أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي حتى يوافيه بخبر هوزان:

فذهب رضي الله عنه ومكث بينهم يوماً أو يومين، ثم عاد وأخبر النبي ﷺ بما رأى [٣].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ، وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب، حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يُدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجيء المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي، حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله ﷺ لأن هذا الأمر ليس وحياً من الله ﷻ، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي ﷺ جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو [٤].

٢ ـ عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح:

أعدّ رسول الله ﷺ جيشاً قوامه عشرة آلاف، وهم من خرجوا معه من المدينة، وألفان من

---

(١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص ٢٥٢).
(٢) انظر: غزوة حنين للشيخ محمد أحمد باشميل (ص ١٢٨ ـ ١٣١).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٧٣).
(٤) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص ٣٦٩).

مسلمة الفتح، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثنا عشر ألفاً، عن أنس بن ملك ﷺ قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي يومئذٍ عشرة آلاف ومعه الطلقاء [١] وهم ألفان، وسعى ﷺ لتأمين عدة الجيش، فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعا وتكفل ﷺ بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم ـ أو قال فادفع إليهم ـ ثلاثين درعاً، وثلاثين بعيراً، أو أقل من ذلك»، فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي ﷺ «نعم» [٢]، وفي رواية: أن رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين دروعاً فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: «لا، بل عارية مضمونة»، قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب [٣]. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم.

٣ ـ ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم وبثوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول ﷺ ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، ونترك العباس عمّ الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس؛ ناد أصحاب السَمُرَة» [٤]، فقال العباس ـ وكان رجلاً صيتاً ـ فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله، لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال

---

(١) الطلقاء: هم الذين أطلقهم النبي ﷺ بعد فتح مكة وخلّى سبيلهم.
(٢) انظر: مسند الشاميين للإمام أحمد.
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/١٣٩٨) رقم (١٧٧٥).

رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس» [١].

لقد أيّد الله نبيه ﷺ يوم حنين بأمور منها:

* نزول الملائكة من السماء.
* سلاح الرعب [٢].
* تأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء.

من الأسلحة المادية التي أيّد الله بها رسوله ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب، فصار كل واحد يجد لها في عينيه أثراً، فكان من أسباب هزيمتهم [٣]. قال العباس رضي الله عنه: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنّ وجوه الكفار. ثم قال: انهزموا وربّ محمد، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئة فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدّهم كليلاً وأمرهم مدبراً [٤].

ثانياً: مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف:

أ ـ قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه. قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشميٌّ بسهم فأثبته في رُكبته. فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني وَلّى، فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي، أقرىء النبي ﷺ السلام وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات. فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمل [٥]، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «اللهم اغفر لعُبيد أبي عامر»، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس»، فقلت: ولي فاستغفر،

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم (١٧٧٢).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٥٩٩).
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص ٢٥٩).
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٣٩٩) رقم (١٧٧٥).
(٥) أي معمول بالرمال وهي حبال الحصى.

فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً».

قال أبو بردة [١]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى [٢].

ب ـ محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف واستخدم أساليب متنوعة في القتال والحصار ومارس الشورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية في صفوف الأعداء، ومن هذه الأساليب:

١ ـ استخدم ﷺ أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النبي ﷺ في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل وهذه الأسلحة هي:

ـ المنجنيق:

فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف. فعن مكحول رضي الله عنه أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف [٣]. والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وُجّهت إليه، فبحجارته تُهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال [٤].

ـ الدبابة:

ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول ﷺ لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة، والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرمي [٥].

ـ الحسك الشائك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف الحسك الشائك وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمّران على هيئة الصليب، حتى تتألف منها أربعة شعب مدببة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثَّر بها أقدام الخيل والمشاة،

---

(١) أبو بردة هو ابن موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.
(٢) البخاري، المغازي (٥/ ١٢٠) رقم (٤٣٢٣).
(٣) الترمذي، باب الاستئذان والآداب، رقم (٢٩١٢).
(٤) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، اللواء محمد فرج (ص ٤٠٧).
(٥) انظر: القيادة في عهد الرسول (ص ٤٠٥).

فتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال [١].

وقد ذكر أصحاب المغازي والسِّير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف [٢]. وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصاً، والمسلمين عموماً أن لا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد، الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢ ـ اختيار رسول الله ﷺ مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجنود يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام، فأصيب من جراء ذلك أناس كثيرون، وحينئذٍ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلَّف الحباب لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه ثم حدد المكان المناسب وعاد فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر النبي ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديد. وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى، قال عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله ﷺ الحباب فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن القوم»، فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف [٣] خارج من القرية، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فأمر النبي ﷺ أن يتحولوا [٤].

٣ ـ استخدام الحرب النفسية والدعاية:

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين، أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرحم أن يترك هذا العمل، ووجّه النبي ﷺ نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم [٥].

---

(١) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، اللواء عبد الرؤوف عون (ص ١٩٥).
(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).
(٣) مسجد الطائف: وهو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.
(٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٤١٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥١٠).

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله ﷺ في رفع الحصار واضحة، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك، وقد استشار رسول الله ﷺ من حوله في عملية الحصار [١] فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال» فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك [٢]، فلما ارتحلوا واستقلُّوا، قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون» [٣]، وقيل: يا رسول الله؛ ادع الله على ثقيف فقال: «اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم» [٤].

المبحث الثاني

فقه الرسول ﷺ في التعامل مع النفوس

ويظهر هذا الفقه في عدة مواقف من هذه الغزوة منها:

أ ـ لا رجعة للوثنية:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية، وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله؛ اجعل لنا «ذات أنواط» كما لهم «ذات أنواط»، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم» [٥].

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النبي ﷺ

---

(١) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع (ص ٢٠٦).
(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (٣/ ١٤٠٣) رقم (١٧٧٨).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧)؛ صحيح السيرة النبوية (ص ٥٦٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٤٩).

أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشرك، وحذرهم من ذلك ولم يعاقبهم أو يعنفهم، لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام [١]، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد لأنه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحح اعتقاده تماماً من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله، وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيها المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والأخلاق، وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار [٢].

ب ـ الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وقد نبّه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «اللهم بك أحول وبك أصول، وبك أقاتل» [٣].

وهكذا أخذ الرسول ﷺ يراقب المسلمين ويقوّم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك حتى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العتاة [٤].

ومع الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة، لأنهم فوجئوا بما لم يتوقعوه، إلا أن رسول الله ﷺ لم يعنّف أحداً ممن فرّ عنه حتى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطلقاء لأنهم فرّوا ولم يوافق على هذا [٥].

جـ ـ الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى ﷺ أن يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم، لحداثة عهدهم بالإسلام فأعطى لزعماء قريش، وغطفان وتميم عطاءً عظيماً، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس بن عدي [٦]، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب

(١) انظر: السيرة الصحيحة (٢/ ٤٩٧).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٦٢).
(٣) المسند للإمام أحمد (٤/ ٣٣٣).
(٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري (ص ١٩٩).
(٥) المصدر السابق (ص ٢٠٤، ٢٠٥).
(٦) انظر: معين السيرة (٤٢١).

الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها [١]، وعبّر عن هذا صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليَّ فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليَّ [٢].

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية وترددت بينهم مقالة فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجدانياً ما يملك القارىء المسلم على مر الدهور وكرّ العصور وتوالي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة؟» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا، أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشّاء [٣] والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووادِيها، الأنصار شعار والناس دثار [٤]، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار». قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا [٥]، وفي رواية: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيء قط (٤/١٨٠٦) رقم (٢٣١٢).
(٢) مسلم، كتاب الفضائل (٤/١٨٠٦) رقم (٢٣١٣).
(٣) بالشاء: أي الشياه وهي الأغنام.
(٤) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

حتى تلقوني على الحوض» [١].

ومما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديثو السن منهم بدليل ما ورد في الصحيحين، عن أنس بن مالك ﷺ أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم فلما اجتمعوا، جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديث بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أما ذووا رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم» [٢].

ويرى الإمام ابن القيم ـ استدلالاً بهذه الحادثة ـ أنه قد يتعيّن على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه ودفع شرهم عن المسلمين، فيقول: الإمام نائب عن الإسلام والذبّ عن حوزته واستجلاب رؤوس أعدائه إليه، ليأمن المسلمون شرّهم، ساغ له ذلك، بل تعيّن عليه... فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين [٣].

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في أول الأمر، حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمد الغزالي حقيقة هذا الأمر في مثال محسوس فيقول: ... إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمدُّ إليه فمها، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له [٤].

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشّرون بالجمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشاه والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٨) رقم (١٠٦١).
(٢) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (٢/ ٧٣٤) رقم (١٥٠٩).
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).
(٤) انظر: فقه السيرة (ص ٤٢٧).

بالدموع وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار [١].

د ـ الصبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربي الذي يدرك أحوالهم وما جبلتهم عليه بيئتهم وطبيعة حياتهم من القساوة والفظاظة والروح الفردية، كان يبيِّن لهم ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربياً ومصلحاً، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحنون أمامهم أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم التزموا بعبارات التعظيم والإجلال كما يفعل العبد مع ربه، أما الرسول ﷺ فكان كأحدهم يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكنون له في أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جفاة الأعراب فقد عنّفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ [٢]، وهذه مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

الأعرابي الذي رفض البشرى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر»، فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رد البشرى، فاقبلا أنتما»، قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا»، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة [٣].

مقولة الأعرابي ما أريد بهذه القسمة وجه الله:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: .... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل،وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. قال: فقلت: والله، لأخبرن رسول الله ﷺ. قال: فأتيته، فأخبرته بما قال،

(١) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ٢١٩).
(٢) المصدر السابق، (ص ٢١٩).
(٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٢٨).

قال: فتغيّر وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله»، قال: ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»، قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً [١].

تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر [٢] ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين ثم أنشأ يقول:

امْنُنْ علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرءُ نرجوه وننتظر [٣]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها دَرَرُ

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله ﷺ عليهم قديماً وحديثاً وخصوصاً وعموماً [٤].

فلما سمع رسول الله ﷺ من الوفد قال لهم: «نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» فقالوا... يا رسول الله خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صلّيت بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم»، فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ فقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض من

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث (١٠٦٢).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢).
(٣) المصدر السابق، (٤/ ٣٥٢).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

أول فيء نصيبه فردوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم» [١]، وفي رواية: . . . . فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين فقال: «إن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا [٢]. وقد سُرَّ الرسول ﷺ بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم برد أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمائة من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالك مسلماً فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة، لقد تأثر مالك بن عوف وجادت قريحته لمدح النبي ﷺ فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشاء يخبر عمّا في غد
وإذا الكتيبة عرّدت [٣] أنيابها ... بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة [٤] خادر [٥] في مرصد [٦]

لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود، وبهذه السياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربةٍ يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفاً في الطائف حتى ضيّق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان، فلا تستطيع تحركاً ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن إسلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف، محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذّن في أعلى منزله فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف [٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣١٩).
(٣) عرّدت: اشتدت وضربت، في القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(٤) الهباءة: غبار الحرب في مختار الصحاح (ص ٦٨٩).
(٥) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للجارية من ناحية البيت.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٤).
(٧) المصدر السابق، (٤/ ١٩٢).

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي ﷺ في معاملة النفوس وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنية، وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتّب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعيّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشداً وموجهاً ومعلماً ومربياً [١]، وعيّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ومجاهداً ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ﷺ.

المبحث الثالث

دروس وعِبَر وفوائد

أولاً: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

إن غزوة حنين سُجلت في القرآن الكريم لكي تبقى درساً للأمة في كل زمان ومكان، ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي [٢]:

أ ـ بيَّن القرآن الكريم أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ...﴾ ثم بيّن القرآن أن هذ الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا...﴾

ب ـ بيَّن القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهربوا ما عدا النبي ﷺ ونفر يسير من أصحابه. قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

جـ ـ بيَّن القرآن الكريم أن الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

د ـ بيَّن القرآن الكريم أن الله أمدَّ نبيَّه محمداً ﷺ بالملائكة في حنين قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (٤/ ١٥٣).

(٢) انظر: حديث القرآن (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).

وأكّد ـ سبحانه ـ على أنه يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ .

ثانياً: أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

١ ـ أن شيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كاف، وإنما عندهم حماس وتسرع.

٣ ـ أن عدد المشركين كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين، فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيّأً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم الغنم ثم النعم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم [١].

ب ـ عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين لعدة أسباب منها:

١ ـ ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه: مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

٢ ـ شجاعة القائد: فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب بل تقدم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها أن لا تسرع.

٣ ـ ثبات قلة من المسلمين معه وحوله: حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.

٤ ـ سرعة استجابة الفارين والتحاقهم بالقتال.

٥ ـ وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل: وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩).

الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه، ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

٦ ـ رمية الحصى: فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد» (١).

٧ ـ الاستعانة والاستغاثة بالله ﷻ: فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

٨ ـ إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتها فيها، وقد سجّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم وفي سورة التوبة (٢): ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١ ـ **نزول الآية الكريمة**: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرّق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي، وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل (٣).

٢ ـ **منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات**: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل عليَّ النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعته يقول لعبد الله بن أبي أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، وقال النبي ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكن» (٤).

وفي هذا المنع حرص النبي ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلامي.

٣ ـ **النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ**: وكذلك الأجراء ممن لا يشتركون في القتل ضد المسلمين، وقد ذكر ابن كثير: أن رسول الله مرّ يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون (٥) عليها فقال رسول الله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفاً» (٦)، وفي رواية فقال له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٢/١١٦، ١١٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٤٢٣).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٥٢٠).
(٤) البخاري، كتاب المغازي (٥/١٢٠) رقم (٤٣٢٤).
(٥) متقصفون: مجتمعون.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/٣٣٦).

وليداً أو امرأة أو عسيفاً [١].

٤ ـ **تشريع العمرة من الجعرانة**: أحرم النبي ﷺ بعمرة من الجعرانة وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنّة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها [٢].

٥ ـ **إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج**: قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليها خلوق [٣]، أو قال: أثر صفرة، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ، وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه فإذا له غطيط (قال) فلما سرى عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة، أو قال: أثر الخلوق، واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك» [٤].

٦ ـ **من قتل قتيلًا فله سلبه**: قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها ثم أخذني فضمّني ضمًّا شديداً حتى تخوّفت ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمرُ الله ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: «من أقام بيّنة على قتيل قتله، فله سلبه»، فقمت لألتمس بيّنة قتيلي فلم أرَ أحداً يشهد لي، فجلست ثم بدا لي، فذكرت أمره لرسول الله ﷺ فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه [٥] أصيبغ من قريش ويدع [٦] أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ، قال: فقام رسول الله ﷺ فأدّاه إليَّ فاشتريت منه خرافاً [٧] فكان أوَّل ما تأثَّلتُهُ في الإسلام [٨].

---

(١) انظر: البداية والنهاية، (٤/ ٣٣٥).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٠٤).
(٣) خلوق: طيب.
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٧٨).
(٥) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله ﷺ، وقوله أصيبغ: نوع من الطيور شبه له لعجزه وضعفه.
(٦) يدع: يترك.
(٧) خرافاً: أي بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.
(٨) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٩) رقم (٤٣٢٢).

ونلحظ في هذا الخبر أن أبا قتادة الأنصاري ﷺ حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق ﷺ فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له [١].

٧ ـ **النهي عن الغلول**: أخذ النبي ﷺ يوم حنين وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين أصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخياط والمخيط وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، وشنار على أهله في الدنيا والآخرة» [٢].

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الوبرة لأخيط بها برذعة بعير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقِّي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك». فقال الأنصاري: أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها فرمى من يده [٣].

وأما عقيل بن أبي طالب فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطّخ دماً، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم [٤].

وهذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه، يمثل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبوي في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العملية؛ إيماناً وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتطهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم [٥].

٨ ـ **وفاء نذر كان في الجاهلية**: قال عبد الله بن عمر ﷺ: لما قفلنا من حنين سأل عمر النبي ﷺ عن نذر كان نذره في الجاهلية اعتكافاً فأمره النبي ﷺ بوفائه [٦].

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٨/ ٢٦).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٤٥).
(٥) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨).
(٦) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٨)، رقم (٤٣٢٠).

رابعاً: مواقف لبعض الصحابة والصحابيات:

١ ـ أنس بن أبي مرثد الغنوي وحراسة المسلمين:

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا الليلة». فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب»، فركب ابن أبي مرثد فرساً له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه وُنُغَرَنَّ من قبلك الليلة».

قال سهيل بن الحنظلية: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاَّه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسنتم فارسكم؟» قالوا: ما أحسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم» فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشِّعب فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها» [(١)]، وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي ﷺ بطليعة القوم حتى جعل يلتفت في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر هام، ثم إنه ﷺ قال: «أبشروا فقد جاء فارسكم». إنها الكلمة التي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كماً مهملاً، ولا رقماً في سجل، ولا بزالاً في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة، ليؤتى بغيره. إنها بعض التفسير للمنهج الإلهي [(٢)] في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٧٠].

كما أن في هذه القصة معلماً من معالم المنهج النبوي الكريم في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوة عدداً وعدّة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض [(٣)].

وأما قول الرسول ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها» فهذا محمول على النوافل التي يكفر الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجات في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات [(٤)].

---

(١) أبو داود في الجهاد رقم (٢٥٠١)؛ صحيح السيرة النبوية (ص ٥٥٠).
(٢) انظر: معين السيرة، (ص ٤٢٩).
(٣) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٤/ ٣٦٦).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤).

٢ ـ شجاعة أم سليم يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجراً [١]، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله اقتل من بعدنا [٢] من الطلقاء [٣] انهزموا بك [٤] فقال رسول الله: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن» [٥].

٣ ـ الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ من الرضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك [٦]، وعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومي فعلت»، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي [٧]، ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماء وشاء [٨].

خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشاعر ـ والهيمنة الإعلامية على الجزيرة:

لمَّا قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير ـ الشاعر ابن الشاعر ـ وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه (بجير) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً مسلماً، وحذره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ والتي اشتهرت بـ (قصيدة بانت سعاد) فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلّى الصبح، ثم جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول ﷺ: إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل

---

(١) خنجراً: سكين كبير ذو حدين.
(٢) من بعدنا: من سوانا.
(٣) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.
(٤) انهزموا بك: انهزموا عنك.
(٥) مسلم (قم ١٨٠٩)، صحيح السيرة النبوية (٥٦٣).
(٦) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.
(٧) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٣)؛ السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٠٦).
(٨) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٣٥٨).

من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله: دعه عنك فقد جاء تائباً نازعاً، وأنشد كعب قصيدته اللامية التي قال فيها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول [١]
وما سعاد غداة الطرف إذ رحلوا ... إلا أغنُّ قرير العين مكحول [٢]

ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
شُمُّ العرانين أبطال لبوسُهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل [٣]

ويقال إنه لما أنشد رسول الله قصيدته أعطاه بردته، وهي التي صارت إلى الخلفاء [٤]، قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه فالله أعلم [٥].

ويقال إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك: «لولا ذكرت الأنصار بخير، فإن الأنصار لذلك أهل» [٦] فقال:

من سرّه كرمُ الحياة فلا يزل ... من مِقْنَب من صالحي الأنصار [٧]
ورثوا المكارم كابراً عن كابرٍ ... إن الخيار هم بنو الأخيار
المُكرهين السَّمْهريَّ بأذرع ... كسوالف الهندي غير قصار [٨]
والناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق وكرار
والقائدين [٩] الناس عن أديانهم ... بالمشرفيَّ وبالقنا الخطَّار [١٠]
يتطهرون يرونه نُسكاً لهم ... بدماءِ من علقوا من الكفار

---

(١) متبول: مغرم، مكبول: مقيد.
(٢) أغن: صفة للغزال الذي في صوته غنة.
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧١).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٣).
(٦) المصدر السابق، (٤/ ٣٧٣).
(٧) المِقْنَب: الجماعة من الخيل. يريد به القوم على ظهور جيادهم.
(٨) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.
(٩) القائدين: المانعين الناس.
(١٠) المشرفي: السيف، والقنا: الرماح جمع قناة، والخطار: المهتز.

إلى أن قال:

لـو يـعـلـم الأقـوام عـلـمـي كـلَّـه فـيـهـم لـصـدَّقـنـي الـذي أمـاري [١]
قـوم إذا خَـوتِ الـنـجـوم فـإنـهـم لـلـطـارقـيـن [٢] الـنَّـازلـيـن مـقـارى [٣]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة [٤].

سادساً: من نتائج غزوة حنين والطائف:

١ - انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن وثقيف في هذه الغزوة.

٢ - كانت غزوة حنين والطائف آخر غزوات النبي ﷺ لمشركي العرب.

٣ - رجوع كثير من أهل مكة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسام عظيم وهو شهادة رسول الله لهم بالإيمان والدعاء لهم، ولأبنائهم وأحفادهم ورجوعهم برسول الله ﷺ إلى المدينة.

٤ - انضمام كوكبة مباركة من قيادة أهل مكة وهوازن إلى الإسلام وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان والأصنام والمعابد الجاهلية في الجزيرة العربية، كما كان لقبيلة هوازن دور كبير في مجاهدات أهل الطائف والتضييق عليهم حتى أسلموا.

٥ - توسعت الدولة الإسلامية وامتدّ نفوذها، وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكة، وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية التي عاصمتها المدينة النبوية، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسول الله بعوثاً دعوية بدون خوف أو وجل من أحد، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السرايا تستهدف الأوثان والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظم رسول الله فريضة الزكاة فكلّف من يقوم على جمعها من القبائل التابعة للدولة [٥].

---

(١) أماري: أجادل.
(٢) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقون الذين يأتون بالليل.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٤٣١ - ٤٣٣).
(٥) انظر: الأساس في السنّة وفقهها في السيرة النبوية (٢/ ٩٦١).

obeikandl.com

المبحث الرابع

أهم الأحداث ما بين حنين وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصدقات:

شرع رسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة ـ في أواخر ذي القعدة ـ في تنظيم الإدارة والجباية، وكان ﷺ قد استخلف عتاب بن أسيد على مكة حين انتهى من أداء العمرة، وخلف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس ويعلّمهم القرآن، وكان هدى النبي ﷺ عندما تدخل القبائل في الإسلام يحرص على تعليمها وتربيتها ويعيّن من يشرف على ذلك، لأن النفوس تحتاج إلى العناية، والاهتمام وغرس العقائد الصحيحة، والتصورات السليمة فيها. وفي مطل المحرم من العام التاسع وجّه الرسول ﷺ عماله إلى المناطق المختلفة، فبعث بريدة بن الحصيب إلى أسلم وغفار، وعباد بن بشر الأشهلي إلى سُليم ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضحاك بن شعبان الكلابي إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعب، وابن اللُّتبيَّة الأزدي إلى بني ذبيان، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم [١]، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد [٢]، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم [٣].

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللُّتبيَّة بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل [٤]: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدى لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت مرتين» [٥]، وكان يقول أيضاً: «أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه فهو غلول [٦].

ثانياً: أهم السرايا في هذه المرحلة.

أ ـ سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النبي ﷺ قد بعث الطفيل بن عمرو من مقرّه في حنين وقبل أن يسير إلى الطائف،

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٤).
(٢) المصدر السابق، (١/ ٣٨٤).
(٣) المصدر نفسه، (١/ ٣٨٤).
(٤) انظر: الدولة العربية الإسلامية، منصور الحرابي (ص ٤٣).
(٥) مسلم، باب محاسبة الإمام عماله رقم (١٨٣٢)؛ صحيح السيرة (ص ٥٧٩).
(٦) انظر: التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٢٦٥).

وأمره بأن يهدم (ذي الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَه الدوسي، ثم يستمد قومه ويوافيه مع المدد إلى الطائف، وقد نفَّذ الطفيل بن عمرو أوامر النبي ﷺ فهدم ذي الكفلين وحرقه، وقاد أربعمائة من قومه ومعهم دبابة ومنجنيق مدداً لرسول الله ﷺ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطائف بأربعة أيام [١].

ب ـ سرية عبد الله بن حذافة السهمي ويقال إنها سرية الأنصار:

قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ سرية فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار فما زالوا حتى خمدت النار فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطاعة في المعروف» [٢].

جـ ـ سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم الفُلس في بلاد طيء:

وفي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلى الفُلس ـ صنم لطيء ـ ليهدمه، وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء، ولواء أبيض، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم ـ حاتم الطائي الذي ضُرب المثل بجوده ـ مع الفجر فهدموا الفُلس وخربوه، وملأوا أيديهم من السَّبي والنَّعَم والشَّاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام [٣].

د ـ سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخُلصة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فقلت: بلى، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري فقال: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً». قال: فما وقعت عن فرسي بعد، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخشعم وبجلية، فيه نصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرقها بالنار وكسرها، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام فقيل له: إن رسول رسول الله ﷺ هاهنا فإن قدر عليك ضرب عنقك، قال: فبينما هو يضرب بها إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرنها ولتشهدوا أن لا إله إلا الله ولأضربن عنقك قال: فكسرها وشهد، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمس يُكنى أبا أرطأة إلى النبي ﷺ يبشّره بذلك فلما أتى النبي ﷺ فبرّك النبي ﷺ على خيل

---

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٥).

(٢) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٢٦) رقم (٤٣٤٠).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٦٢٤).

أحمس ورجالها خمس مرات [١].

ثالثاً: إسلام عدي بن حاتم:

عندما وقعت أخت عدي بن حاتم في أسر المسلمين عاملها رسول الله ﷺ معاملة كريمة، وبقيت معززة مكرمة ثم كساها النبي ﷺ وأعطاها ما تتبلغ به في سفرها، وعندما وصلت إلى أخيها في الشام شجعته على الذهاب لرسول الله ﷺ، فتأثر بنصيحتها وقدم على المدينة [٢]، ونترك أبو عبيدة بن حذيفة يحدّثنا عن قصة إسلام عدي:

قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أحدَّثُ عن عدي بن حاتم فقلت: هذا عدي في ناحية الكوفة، فلو أتيته، فكنت أنا الذي أسمع منه، فأتيته فقلت: إني كنت أحدث عنك حديثاً، فأردت أن أكون أنا الذي أسمعه منك. قال: لما بعث الله ﷻ النبي ﷺ فررت منه حتى كنت في أقصى أرض المسلمين مما يلي الروم.

قالت: فكرهت مكاني الذي أنا فيه حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت، قال: قلت: لآتين هذا الرجل فوالله إن كان صادقاً فلأسمعن منه، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيته واستشرفني الناس وقالوا: عدي بن حاتم، عدي بن حاتم، قال: أظنه قال ثلاث مرات، قال: فقال لي: «يا عدي بن حاتم أسلم تسلم»، قال: قلت: إني من أهل دين. قال: ريا عدي بن حاتم أسلم تسلم»، قال: قلت: إني من أهل دين، قالها ثلاثاً. قال: «أنا أعلم بدينك منك». قال: قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم»، قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى. قال: فذكر محمد الركوسية [٣] قال: كلمة التمسها يقيمها فتركها قال: «فإنه لا يحل في دينك المرباع [٤]».

قال: فلما قالها، تواضعت لها. قال: «وإني قد أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها ممن حولي، وأن الناس علينا إلباً واحداً هل تعرف مكان الحيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها ولم آتها. قال: «لتوشكن الظعينة أن تخرج منها بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، ولتوشكن كنوز كسرى بن هرمز تفتح»، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز» ثلاث مرات، «وليوشكن أن يبتغي من قبل ماله منه صدقة فلا يجد»، قال: فلقد رأيت اثنتين، قد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة وكنت في الخيل التي أغارت على

---

(١) البخاري، المغازي (٥/ ١٣٢) رقم (٤٣٥٧).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ٨١).
(٣) قوم لهم دين بين النصارى والصابئة، النهاية (٢/ ٢٥٩).
(٤) المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيد القوم قبل القسمة.

المدائن، وأيم الله لتكونن الثالثة إنه لحديث رسول الله ﷺ حدثنيه [١]. وفي رواية جاء فيها.... فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: «من الرجل؟» فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم [٢]، محشوة ليفاً، فقذفها إليَّ، فقال: «اجلس على هذه»، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت»، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك [٣]. وفي هذه القصة دروس وعِبَر كثيرة منها:

١ ـ كان عدي وهو مقبل على رسول الله يحمل في تصوره أنه أحد رجلين إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة شعر بخلق التواضع وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

٢ ـ كان النبي ﷺ موفقاً حينما انتقد عدياً في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله ﷺ الذي يعلم من دينه ما لا يعلمه الناس من حوله.

٣ ـ لما ظهر للنبي أن عدياً قد أيقن بنبوته تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وما هم فيه من الفقر، فأبان له النبي ﷺ بأن الأمن سيشمل البلاد حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لا يقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

٤ ـ كان النبي ﷺ موفقاً في دعوته حيث كان خبيراً بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كل إنسان بما يلائم علمه وفكره، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، ولذلك أثر في زعماء القبائل ودخل الناس في دين الله أفواجاً [٤].

٥ ـ وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته ﷺ وحياته، ووجد هذه السمات أيضاً في لون حديثه وكلامه، ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا ومظاهر الأبهة والترف

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٨٠).
(٢) أدم: هو بفتحتين، الجلد.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٣٦).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ٥٨، ٨٦).

التي كان قد أسبغها عليه قومه [١].

رابعاً: أحداث متفرقة في سنة ثمان:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: . . . . وفي هذه السنة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعمرو ابن الجلندي من الأزد، وأخذت الجزية من مجوس بلدها ومن حولها من الأعراب، وفيها تزوج رسول الله فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة، فاستعاذت منه ﷺ ففارقها، وفي ذي الحجة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطية فاشتدت غيرة أمهات المؤمنين منها حين رزقت ولداً ذكراً [٢].

وفي عام ٨ هـ توفيت السيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الربيع، ولدت قبل المبعث بعشر سنين وكانت أكبر بناته ﷺ ـ تليها رقية ثم أم كلثوم، ثم فاطمة رضي الله عنهن ـ ، كان رسول الله محباً لها، أسلمت قديماً ثم هاجرت قبل إسلام زوجها بست سنين، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثم نزفت، وصار المرض يعاودها حتى توفيت، ولما ماتت قال رسول الله ﷺ: «اغسلنها وِتْراً: ثلاثاً، أو خمساً، واجعلن في الآخرة كافوراً» [٣].

(١) انظر: فقه السيرة للبوطي، (ص ٣٢١).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٧٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٩٠). الكافور: نبات طيب الرائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ويجعله صلباً متماسكاً، ويمنع إسراع الفساد إليه.

openkandl.com